**الاستحواذ: رؤية سوسيولوجية**

**بقلم/ عبدالرزاق جدوع محمد**

**لا نذهب بعيدا إذا قلنا أن نزعة الاستحواذ ضاربة اطنابها في عمق التاريخ البشري ، ظهرت بوادرها في صراع الاخوين (قابيل وهابيل) ، وكان القربان محور هذا الصراع ، فكلٌ منهما يطمح أن يُقبل قربانه ، فتُقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر حسب النص القرآني([[1]](#footnote-1) ) وكان الاختيار من نصيب هابيل ، إذ قبل الله سبحانه وتعالى قربانه ولم يقبل قربان قابيل ، فأستشاط الأخير غضباً وتملكه حب الذات والميل إلى الاستحواذ على الفوز بالقبول الإلهي ، فأندفع مسرعاً ليقتل أخيه فقتله ، وفي حادثة القتل درس بليغ لجميع البشرية ، مفاده أن الاستئثار وحب الذات والاستحواذ (الطمع) هي خصال غير محمودة ، ولابد أن يتربى الإنسان على الإيثار والتضحية وحب الآخرين كما يحب نفسه .**

**لكن البشر لم يعتبر من هذا الدرس ، ومن يوم حادثة القتل بين الأخوين وإلى اليوم والصراع محتدم بين بني البشر وأهم سبب في هذا الصراع الاستحواذ، فالفقير الجشع يبحث عن الوسائل الممكنة وغير الممكنة للوصول إلى الغنى ، والغنيّ الجشع لا يكتفي بما عنده من ثروات بل يريد المزيد ، ولو أعطي جبل من ذهب أراد جبل آخر ، ولا يملأ عينه إلا التُراب كما يقال . وقديماً قالوا أثنان لا يشبعان طالب مال وطالب علم .**

**أغلب الناس ميالون بطبيعتهم إلى الاستحواذ ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة الذين (تسورو المحراب) ، إذ قال تعالى : وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ (25) ( [[2]](#footnote-2)) .**

**وهناك أمثلة كثيرة يوردها القرآن الكريم مثل آية ( أن الإنسان ليطغى إن رآه أستغنى)( [[3]](#footnote-3))، وقصة أبناء يعقوب ماثلة([[4]](#footnote-4) )، فهم قد كذبوا على ابيهم طمعاً في الاستئثار والاستحواذ على محبة ابيهم دون أخيهم يوسف .**

**من يطالع التاريخ يكتشف أن أكثر النزاعات بين البشر سببها الاستحواذ على الثروات والأرض التي تحتويها ، وعلى اعتابها تجز الرقاب وتسيل الدماء أنهاراً ، وتتسع رقعة المقابر بالقبور وتبقى الثروات التي تنازعوا عليها للأحياء وهؤلاء الاحياء ربما لا يكونوا طرفاً في النزاع ، تذهب الثروات لهم (نوامة الضحة) كما نقول في العامية العراقية ويحرم منها من ضحى في سبيلها وهكذا ابناء الدنيا آخرهم يرث اولهم .**

**تكونت حضارات العالم في الماضي وبنت أمجادها على حساب المجتمعات المجاورة، فالحضارة في اوج ازدهارها تعني القوة والعنفوان كما يقول أبن خلدون ، وعندما تصاب بالغرور نتيجة هذه القوة تستحوذ على ما يحيط بها من تجمعات بشرية ، وتتعاقب الحضارات في العالم تبعاً للنفوذ والقوة التي تدفع باتجاه الكسب والاستحواذ ،**

**حضارات العالم في العصر الحديث اختلفت عن الماضي ، فاصبح لها أسماء مثل (إمبراطورية ودول عظمى ودول امبريالية وتقسم العالم الى عالم أول وعالم ثاني وعالم ثالث) وهكذا. وهذه الدول العظمى خاضت حروب كونية ضروس طمعا في المستعمرات وكانت البلدان العربية احدى اهم هذه المستعمرات .وكيف لا وهي تقع في قلب هذا العالم المتصارع وفيها الثروات وابرز هذه الثروات البترول (محور الصراع في المرحلة الراهنة واللاحقة ) .**

**وسبب هذه الحروب اطماع الدول الاستعمارية على الأراضي المستعمرة فحدثت الحرب العالمية الأولى ، وكانت بعض الدول غير راضية على هذه القسمة وخاصة ألمانيا فشنت حرباً على الدول المجاورة فحدثت الحرب العالمية الثانية ، (وكانت حصيلة هذين الحربين عشرات الملايين من البشر) . لكن امام هذه الضحايا هل يتعظ البشر ويكف عن الأطماع ، لكن البشر سائر على هذا المنوال لا يغير الا بتغير طبيعته ، وانىّ لهذه الطبيعة أن تتغير .**

**وكما هو الحال في حروب الدول واطماعها على المستعمرات يكون حال المجتمعات المحلية والافراد في البلد الواحد ، فالمجتمع الريفي مثالاً واضحاً للاستحواذ تجٌلى ذلك في العهد الملكي في العراق في النصف الأول من القرن العشرين . فقد رجحت في هذا المجتمع كفة الملاكين (الاقطاع) حتى هوت ، وارتفعت كفة الفلاحين البسطاء حتى علت ، ذلك أن الملاكين يستحوذون على مساحات شاسعة من الارض بينما يحرم الفلاحون من هذه المساحات ، حتى يضطر الكثير منهم إلى السرقة من (بيادر) الملاكين سداً لرمقهم ورمق عوائلهم . وهم مع ذلك يعملون طوال اليوم ولا يجنون إلا النزر القليل ، ويذهب حاصل جهدهم إلى الملاكين الذين لا يروق لهم السكن في القرى ، بل اتخذوا من المدن الكبرى سكناً لهم كما هو الحال في مدينة بغداد حتى اطلق عليهم بالملاك الغائبون absentee land lord)) .**

**وحال الملاكين آنذاك يذكرنا بحال الطبقات الرأسمالية في أوربا آبان النهضة الصناعية ، وكيف كانت هذه الطبقات تستغل العمال ابشع استغلال ، وقد انتقد ماركس وانجلز هذه الطبقات نقداً لاذعاً . وقد عرضه هذا الانتقاد إلى الهروب من بلده إلى لندن حيث أكمل بقية حياته فيها .**

**لقد ورث المجتمع الريفي نزعة الاستحواذ من الملاكين في العهد الملكي فكان الفلاح العراقي يدخل في صراعات مع الفلاحين الآخرين والأسباب معروفة وهي (التجاوزات على الأرض وعلى الحصة المائية)، والتجاوزات تطال المساكن ايضاً وإذا لاحظت عزيزي القارئ ضيق الشوارع في أغلب القرى العراقية ، فهذا دليل واضح على جسامة التجاوزات وفداحتها ، وكنت أرى في المجتمع الريفي آنذاك سرقات الحصة المائية (الطاك)[[5]](#footnote-5)(1) أو الرشن[[6]](#footnote-6)(2) . مما يضطر الفلاح صاحب الحصة المائية الى متابعة مجرى النهر ( كراخة ) منعا لهذه السرقات .**

**والتجاوز لا يقتصر على الدور السكنية والاراضي الزراعية بل يمتد ليشمل جوانب أخرى تتمثل بالتوزيع غير العادل (للثروة) فنجد مثلاً أن الأب هو من يمتلك مصروف العائلة يعطي أو يمنع العطاء لزوجته ولأبنائه . أما الأبن الأكبر فهو من يرث الأب ، لذا فأن حصته غالباً ما تكون هي الحصة الأكبر بين اخويه بدعوى (احترام الكبير واجب) و (الاكبر منك بيوم أعلم منك بسنة) .**

**وفي الريف ايضا يتجلى التغابن بابهى صوره (غياب العدالة )، فتوزيع ثروة الاباء بين الابناء غالباً ما يكون غير عادل . لأنه لا يكون دقيقاً وتراهم يتنازعون بعد مدة من الزمن لأنهم يكتشفون القسمة الباطلة. ناهيك عن مسائل الزواج وتقسيم الميراث للذكور والإناث، والإناث ضحايا التوزيع غير العادل ، فالأبناء الذكور يستأثرون بالميراث ، وأما النساء فيحرمن منه بحجة أنهن تزوجن ‘وهنٌ في بيوت أزواجهن .وهناك تجاوزات أخرى لا يتسع المقال لذكرها .**

**أما في المدن فنلاحظ الاستحواذ واضحاً ايضاً ، ذلك أن اغلب سكان المدن هم من اصول ريفية وعشائرية ، لهذا نجد كثيرا منهم يحاولون الاستيلاء على ارصفة الشوارع والازقة من خلال تقديم اسيجة البيوت بمتر أو نصف المتر إلى الامام وتضييق الارصفة بحجة أنه تعرض إلى الغبن ، فمسافة بيته كما يدعي هي أقل مما قدر له ، وإذا لم يقدم سياج بيته ، فأنه يقوم بتقديم بوابة البيت الخارجية إلى الامام .او يدعي أن المساحة المخصصة لسيارته قليلة ولا تكفي لوضع السيارة ،لذا فهو مضطر إلى تقديم بوابة البيت الى الامام . وإذا سرت في شوارع المدينة ستجد أن الارصفة قد غابت عن الانظار لأن اصحاب المحلات قد احتلوها بالكامل ، حتى أن السابلة المساكين لم يجدو طريقاً يسيرون عليه إلا الشوارع وهي مخصصة للسيارات فأين المسير ؟ والتجاوزات لا تقتصر على المكان فقط ، وإنما تشمل مناحي أخرى في الحياة ، تجدها عند البقال الذي يضاعف ارباح بضاعته من الفواكه والخضر ، وتجدها عند التاجر الذي يقسم لك باغلظ الايمان أن بضاعته لا يوجد لها مثيل ، ويبيعها لك بأضعاف ثمنها ، وكما تلمسها عند بسطاء الناس تجدها كذلك عند النخب المتعلمة، فالتدريس الخصوصي أصبح ظاهرة لدى بعض المعلمين والمدرسين طمعاً في المال، وإذا ارتفعت الى الاعلى فستجد ان بعض الاساتذة الجامعيين يتنازعون على التدريس والاشراف على طلبة الدراسات العليا . وكل ذلك يجري أمام مرأى ومسمع الطالب الجامعي ، والمال وحده هو أس هذا النزاع . و ياليتهم تنازعوا على مسائل العلم وقضاياه ،ولكن أنى لهم ذلك وحالهم هذا لا يختلف عن حال الباعة في الاسواق ، مع الفارق في المستوى العلمي . كما أن سرقة النصوص من الكتب والبحوث دون الاشارة إلى اصحابها باتت تشكل مشكلة خطيرة في المرحلة الحالية ،ولو كانت متوقفة على السرقة لهان الأمر ولكن تتعداها إلى شراء بحوث جاهزة من مكاتب مخصصة لهذا الغرض همها الربح مهما كانت الوسيلة .**

**لكن الاستحواذ رغم ذلك له محاسنه فهو أحد أهم محركات الصراع ولولاه ما تحرك الإنسان لطلب العلم والمعرفة للهيمنة على الطبيعة وتسخيرها له ، فالميل إلى الاستحواذ يجعل الإنسان قوياً ،لأنه يعطي قوة ونفوذ لصاحبه ، لذا تصارعت الافراد على طلبه وتنازعت الدول عليه ، واطلقت العنان لعلمائها ومفكريها أن يبتكروا ابتكارات علمية جديدة تنافس الدول الاخرى ، والدول الاخرى بدورها ترد بالمثل ، وهكذا دواليك ... ولولا هذا التنافس والتنازع لما شهدنا كثير من مظاهر التطور الحديثة . ولولا التنازع على الحاجات لبقى الإنسان في مراحله الحياتية الأولى .**

**الحديث عن الاستحواذ يجرنا لا شعورياً إلى تفرعات وأحاديث جانبية كثيرة ،لذا نختتم موضوعنا ونحن نردد (لا يملأ عين الإنسان إلا التراب) . فالتراب عبرة بليغة لكلِ طامعٍ جشع ،فهو يلفه بعد موته كما يلف الثوب الجسد .**

1. - سورة البقرة ، اية [↑](#footnote-ref-1)
2. - سورة ص [↑](#footnote-ref-2)
3. -سورة العلق اية 6 [↑](#footnote-ref-3)
4. - سورة يوسف [↑](#footnote-ref-4)
5. **(1) الطاك : هو السقي بالتناوب ، فلكل فلاح حصته من السقي .** [↑](#footnote-ref-5)
6. **(2) الرشن : كلمة انكليزية تعني نسبة أو حصة . وهو تماثل كلمة طاك آنفة الذكر .** [↑](#footnote-ref-6)